موقف الحركة الاستشراقية من تاريخ النحو العربي ونقدها

▪ أ. د. حمداد بن عبد الله
أستاذ محاضر - قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات والفنون-جامعة سعيدة الجزائر

لا ريب أن لظاهرة الاستشراق أثرًا عظيمًا في العالم الإسلامي والعالم الغربي على السواء، ونستطيع القول: إن الاستشراق في واقع أمره كان ولا يزال جزءًا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل ذهب أحد الباحثين إلى جعله أبعد من ذلك فذكر قائلا: «**ونقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، ولذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضيةٌ منفصلةٌ عن باقي دوائر هذا الصراع الحضاري. فقد كان للاستشراق من غير شكٍّ أكبر الأثر في صياغة التصوّرات الأوروبية عن الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرونٍ عديدةٍ**»[1].

مفهوم الاستشراق واختلاف التعاريف حوله:

لقد تباينت الرؤى في حد هذا المصطلح، فألفينا تعريف العرب يخالف

(1) د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، دار التضامن للطباعة، الطبعة الأولى، القاهرة، (1404هـ/1984م)، ص3.

تعريف الغربيين له، فمنهم من يرى أنه طلبُ علوم الشرق ولغاته، مولده عصرية تُقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة، ويتبدى هذا التعريف لمن يهتم بالجانب العلمي في هذه المسألة، غير أننا نجد في تعاريف أخرى ما يمتّ بقربى إلى السياسة والسيطرة. فهذا الكاتب الشهير إدوارد سعيد يورد عن هذا المفهوم فيقول: «**الاستشراق هو المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار تقريرات حوله، وبوصفه وتدريسه، والاستقرار فيه وحكمه، وهو بإيجازٍ أسلوبٌ غربيٌّ للسيطرة على الشرق واستبنائه، وامتلاك السيادية عليه**»[1]. وقد نقصد بالشرق معناه الواسع ليشمل شعوب الهند وفارس، والصين واليابان، وهو ما نفقهه من أحد كبار الباحثين المستعربين الإيطاليين في هذا القرن وهو فرانسيسكو غابرييلي إذ يقول: «**وقد اعتبر في البداية كعلمٍ واحدٍ متكاملٍ ثم سرعان ما انقسم إلى فروعٍ وتخصصاتٍ مستقلةٍ بعضها عن بعضٍ، ومتعلقةٍ بمختلف الحضارات الخاصة بالشرق الإفريقي-الأسيوي. وهكذا شهدنا ظهور الاستشراق الصيني والهندي، والدراسات الإيرانية والتركية، والعالم السامي والإسلاميات، والدراسات المصرية القديمة، و دراسة إفريقيا، وبقية التجمعات المناسبة أو المتعلقة بتقسيماتٍ محددةٍ تمامًا من النواحي اللغوية، والتاريخية، والعرقية للحضارات. كل هذه التخصصات راحت تحل محل التسمية العامة والمشتركة للاستشراق، وأصبحت هذه التسمية القاسم المشترك بينها أو اللحمة المشتركة لها**»[2]. غير أن المتأمل في الجهود المبذولة في هذا المضمار يرى أن الدراسة تركزت على الشرق الأوسط أي على العرب والمسلمين أساساً.

وإذا كان هناك تمايزٌ في التعريف الاصطلاحي للاستشراق، فهذا آيل لا محالة إلى تباين المشارب والرؤى، وكذا الخلفيات الفكرية التي ينطلق منها كلُّ باحثٍ، وهو ما نلمسه من هذا القبيل في قول أحد المهتمين بالظاهرة الاستشراقية حيث يقول: «**على الرغم من القواسم المشتركة بين مختلف الخطابات الاستشراقية، إلا أنه لا يمكننا أن نهمل الفروقات المتدرجة الكائنة**

(1) إدوارد سعيد: الاستشراق، تر جمة: د/محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006م، ص39.

(2) د/فرانسيسكو غابرييلي وآخرون: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد: هاشم صالح، دار الساقي، ط/3، بيروت، لبنان، 2016م، ص21-22.

بينهـا، وهـي فروقـاتٌ مهمـةٌ أحيانًـا. صحيـحٌ أنهـا تدافـع جميعهـا عـن المنهجيـة الغربيـة، أو المنهجيـة العلميـة التاريخيـة [في زعمهـم]، وتدعـو إلى تطبيقهـا عـلى الـتراث الإسـلامي، إلا أنهـا تختلـف فيـما عـدا ذلـك، فمنهجيـة رودنسـون ذاتُ تلويـنٍ اجتماعـيٍّ - ماركـسي أكـثر مـن منهجيـة برنـارد لويـس التـي يبـدو أنهـا تنتمـي إلى منهجيـة تاريـخ الأفـكار التقليـدي كـما هـو سـائدٌ في الغـرب منـذ القـرن التاسـع عـشر. منهجيـة فيلولوجيـة- تاريخيـة كلاسـيكية لا تعنـى كثيرا بالمشروطيـة الاجتماعيـة- الاقتصاديـة للموضـوع المـدروس، وإنمـا تـدرس الأفـكار، وكأنهـا ذات كيـانٍ مسـتقلٍّ بذاتـه. وكذلـك منهجيـة كلـود كاهـين، فهـي تـولي أهميـة للعوامـل الاجتماعيـة والاقتصاديـة أكـثر مـن منهجيـة فرانسيسـكو غابرييـلي، أو وليـام كانتـول سـميت»[1].

أمـا إذا يممنـا وجهنـا شـطر الوجـه الآخـر أي نظـرة العـرب إلى ظاهـرة الاسـتشراق فسـنجد أيضًـا هـذا التبايـن، فعـلى سـبيل المثـال نلحـظ أن تعريـف المفكـر الإسـلامي الشـهير محمـود شـاكر لهـذا المصطلـح غـير تعريـف إدوارد سـعيد الـذي أشرنـا إليه آنفًـا، وذلـك أن هـذا الأخـير كان نصرانيًّـا، وإن كان شرقيًّا، فـنرى تركيـزه عـلى الجانـب السـياسي متأثـرًا ب ميشـال فوكـو في نظرته الفلسـفية. أمـا الباحـث محمـود شـاكر فـكان ينظـر إلى أن هـذا الأمـر هـو محاولـةٌ لهيمنـة المسـيحية الشـمالية كـما نعتهـا عـلى البـلاد الإسـلامية[2]. وعمومًـا فـإن كثيرا مـن المسـتشرقين يتفقـون عـلى عنـاصرَ مشـتركة للاسـتشراق، وعـلى أيِّ حـالٍ فهـو في صورتـه العامـة: عبـارةٌ عـن اتجـاهٍ فكـريٍّ غـربيٍّ يقـوم بدراسـة حضـارة الأمـم مـن جوانبهـا الثقافيـة والفكريـة، والدينيـة، والاقتصاديـة والسياسـية كافـةً لغـرض التأثـير فيهـا. وقـد ذهـب في هـذا السـياق الباحـث محمـود حمـدي زقـزوق عـلى أن «**المعنـى الخـاص لمفهـوم الاسـتشراق الـذي يعنـي الدراسـات الغربيـة المتعلقـة بالـشرق الإسـلامي في لغاتـه وآدابـه، وتاريخـه وعقائـده، وتشريعاتـه وحضارتـه بوجـهٍ عـامٍّ، وهـذا هـو المعنـى الـذي ينـصرف إليـه الذهـن في عالمنـا العـربي والإسـلامي عندمـا يطلـق لفـظ «استشراق**» أو «**مسـتشرق**»، وهـو الشـائع أيضـا في

(1) هاشم صالح: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص8.

(2) ينظر: محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص48.

كتابات المستشرقين المعنيين»[1]. وقد يعني هذا المفهوم كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين شرقيين وغربيين بما يشمل السوفيات والأمريكيين من دراساتٍ أكاديميةٍ جامعيةٍ تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في شتى الحقول المعرفية فضلاً عمّا تنشره وسائل الإعلام المتباينة بلغاتها، أو لغة الضاد لمعالجة قضايا العرب والمسلمين. كما يمكننا أن نُلحق بهذا التعريف ما يخطه النصارى العرب ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المخيال الغربي، وكذلك تلامذة المستشرقين من بني جلدتنا الذين تبنوا كثيرا من أفكار المستشرقين، ويتبدى أن هذا التعريف الأخير هو الأعم والأشمل إذ أومأ إلى كل ما له علاقةٌ بالتأثير في العقل العربي والمشرقي، أو هو باختصارٍ تذوق أشياء الشرق.

والاستشراق في واقع أمره قضيةٌ تتناقض حولها الآراء في عالمنا العربي الإسلامي، فبين مؤيدٍ له ومتحمسٍ إلى أقصى حدٍّ، وبين رافضٍ له جملةً وتفصيلاً، لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الاستشراق له انعكاساته القوية على الفكر الإسلامي الحديث إيجابًا أو سلبًا أحببنا أم كرهنا. ولهذه العلة لا نستطيع أن نتجاهله، أو نكتفي بمجرد رفضه، وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، ولو فعلنا ذلك في تصورنا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال. وفي هذه الحال فليس هناك بدٌّ من مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها ومقاربتها، واستخلاص النتائج، ووضع الحلول، واقتراح البدائل، وما إلى ذلك[2].

وإذا كانت جهود فئةٍ من هؤلاء قد اتسمت بالإيجابية، فإنه لابد لنا من الإشارة إلى ما لدى فئةٍ أخرى من سلبياتٍ، وقد أسهبت الباحثة القديرة الدكتورة نفوسة زكريا في الحديث عن هذا الصنف في مؤلفها الشهير (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر)، وقد وصف الدكتور عبد الصبور شاهين في هذا السياق آفتهم فقال: «**وآفة المستشرقين أنهم يسوقون**

(1) مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين مذكرة ماجستير، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية (1436هـ- 1437هـ/2015م - 2016م)، ص14 عن حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص18.

(2) ينظر: د/محمود حمدي زقزوق: الإسلام والاستشراق، ص3-4.

مجـرد الاحتـمالات العقليـة مسـاق الحقائـق المسـلّمة، ويقيسـون المـاضي- الـذي لم يكـن يومًـا جـزءًا مـن تاريخهـم، وبالتـالي لم يكـن مـن مكونـات ضمائرهـم- بمقيـاس حاضرهـم مـع تبايـن المـكان والزمـان، والعقليـة والـروح. وآيـة ذلـك أنهـم يغضـون أبصارهـم عـن الطابـع الميتافيزيقـي الـذي نشـأت في ظلـه أحـداث التاريـخ القـرآني عـلى عهـد النبـوة[1].

ولعلـه مـن النصفـة أن نقـول للمحسـن أحسـنت وللمسـيء أسـأت، فقـد كان هنـاك منهـم مـن أنصـف التاريـخ الإسـلامي، وخـدم الحضـارة العربيـة بعامـةٍ، وهـو مـا نلمحـه عنـد المسـتشرق غوسـتان لوبـون في مؤلفـه (حضـارة العـرب)، وتومـا س أرنولـد في كتابـه العظيـم (الدعـوة إلى الإسـلام)، وكـذا المسـتشرق الفرنـسي دينيـه مؤلـف (أشـعة خاصـة بنـور الإسـلام)، والمسـتشرقة الألمانيـة سـيغريد هونكـه صاحبـة كتـاب (شـمس اللـه تسـطع عـلى الغـرب) وغيرهـم.

اهتمام المستشرقين بالدرس النحوي العربي:

لقـد كان للمسـتشرقين جهـودٌ ضخمـةٌ في مجال الدراسـات التاريخيـة، تمثـل ذلـك جليًّـا وواضحًـا في سـعيهم إلى تأليـف المعاجـم التاريخيـة للغـة العربيـة، كـما كـثرت بحوثهـم وتآليفهـم في فقـه اللغـة، ودراسـة لباقـي العلـوم، ومنهـا النحـو العـربي دراسـةً تاريخيـةً تطوريـةً. كـما ألفـوا في المجـال النحـوي كتبـا كثـيرة. وقـد أصبحـت الدراسـات الاسـتشرافية للغـة العربيـة وآدابهـا وعلومهـا مهمـةً حتـى أننـا لـن نبالـغ لـو قلنـا: إن مـا يكتـب عـن العربيـة وعلومهـا بلغـات الغـرب حاليًّـا في الكتـب والدوريـات الغربيـة عـلى أيـدي المسـتشرقين، وتلاميذهـم مـن العـرب لكثيرٍ إلى الحـد الـذي يسـتدعي عنـد بعضنـا الغرابـة[2]. ولعـل كتـاب الدكتـور محمـد حسـن بـاكلا (اللسـانيات العربيـة)، (مقدمـة وبيبلوغرافيـا اللسـانيات، أو البيبلوغرافيـا) التـي صنعهـا ديـم، وأكملهـا فرسـتيج للدراسـات الاسـتشراقية للنحـو العـربي، ونـشرت في المجلـة التـي يـرأس تحريرهـا الألمـاني فيـشر وهـي (Journal of Arabic Linguistics) لخـير دليـلٍ

(1) د/عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، دار النهضة، ط/5، مصر، أبريل 2015، ص8-9.

(2) ينظر: د/ عبد المنعم السيد أحمد جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط/1، (1437هـ/2016م)، ص9.

على وجود كمٍّ كبيرٍ من البحوث المكتوبة بمختلف اللغات الأوروبية عن اللغة العربية، ولقد أثبت الدكتورعبد الرحمن يوسي في بحثٍ له موسومٍ ب (هل توجد لسانياتٌ استشراقيةٌ؟: is there an orientalistlinguistics) اهتمام الغرب بالعربية منذ الإسباني ألكالا (1505م)، حتى عصرنا هذا موضحًا اتجاهاتهم البحثية[1].

ويتجلى الاهتمام باللغة العربية من قبل عددٍ كبيرٍ من المستشرقين وغيرهم في الجامعات الغربية من خلال دائرة المعارف الخاصة باللسانيات العربية، حيث يرأس تحريرها المستشرق الهولندي كيس فرستيج، وقد صدرت في خمسة أجزاء حتى الآن، وقد نوّه الدكتور حمزة المزيني بمكانة العربية في الدراسات اللغوية المعاصرة في مؤلفه (مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة). وفي الواقع إن الاهتمام باللغة العربية في أوروبا كان منذ زمنٍ بعيدٍ، وكان الاهتمام بذلك يختلف من عصرٍ إلى آخر، وهو ما أفصح عنه غير قليلٍ من المستشرقين[2].

وقد ارتأى يوهان فوك أن فتوحات العرب الكبرى، والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، وبين الدول الأوروبية الأخرى فيما بعد، وقيام العالم الإسلامي بالمحافظة على تراث القدماء مثل اليونان وغيرهم في المجالات العلمية، كانت الدافع إلى حث الأوروبيين على الترجمة من العربية إلى اللاتينية، لكن هذا الصنيع لم يؤد إلى القيام بدراساتٍ فقهيةٍ للغة، برغم المحاولة، فإن أقدم ترجمة لاتينية للقرآن ترجع إلى سنة 1143م، وقد اضطلعت بتقديم مضمون الفكرة، ولم تكترث بأسلوب الأصل العربي وصياغته[3].

والحقيقة أن بدايات الاهتمام بالعربية عمومًا، وبالنحو العربي خصوصًا قد بدأت منذ أن كتب ألكالا(Pedro Alcala) في إسبانيا عن النحو العربي في سنة 1505، وأعيد طبع مؤلفه باختصار في باريس سنة 1538 م على

(1) ينظر:
Youssi, A., 2004: is there an orientalist linguistics? In haak, M. et AL (eds): approaches to arabic dialects, Birll: lindex, boston, P329.

(2) Versteegh, K., 2001, Greek elements in arabic linguistics thinking,leiden, P335

(3) ينظر: يوهان فك: تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة: د/عمر لطفي العلم، دار قتيبة، دمشق، 1996م، ص11.

يـد وليـم بوسـتل، وفي عـام 1610م طبـع بيتركريسـين(P. Kristen) ترجمـةً باللاتينيـة لمقدمـة ابـن داود، وهـذه هـي الترجمـة الأولى لكتـاب نحـوٍ عـربيٍّ. كـما أن ريمونـد(JeanBaptist Raymand) طبـع في رومـا نـص وترجمـة كتـاب (التصريـف) ل النحـوي البغـدادي الزنجـاني، وكان تومـاس إربنيـوس كتـب باللاتينيـة قواعـد العربيـة، ولأول مـرةٍ يكتـب كتـابٌ عـن النحـو العـربي بيـد وتصـور أوروبيـين حسـب تعبـير فـوك[1]. وفي سـنة 1613م نـشر في باريـس جابريـل سـيونيتا(G.Sionita)، وجـان هسرونيـنا(J. Hesronit) الجـزء الأول مـن كتابهـم (نحـو اللغـة العربيـة) ويقـع في 48 صفحـة[2]. وهكـذا تتعـدد الأعـمال إلى أن يلقانـا كلـود إتـين سـفاري(E. Savary) الـذي ألـف مؤلَّفًـا وسـماه ب (نحـو اللغـة العربيـة العاميـة والفصحـى) وذلـك عـام 1813م.

ولقـد كانـت المرحلـة الجديـدة في دراسـة النحـو العـربي مـع المسـتشرق الشـهير سلفسـتردي سـاسي الـذي نـشر أكـثر مـن مؤلَّـفٍ عـن النحـو العـربي، والأدب العـربي، وأهـم كتبـه (النحـو العـربي)، والملحـوظ أن مناهج المسـتشرقين في بدايـات اهتمامهـم بالنحـو العـربي كانـت متمايـزةً عـن درس دي سـاسي، ومسـتشرقي القـرن التاسـع عـشر. وقـد لمـس هـذا المسـتشرق جوانـب مـن النحـو العـام (GrammaireGénérale) في معالجتـه للنحـو العـربي متأثـرًا في ذلـك بـروح بوروبـال(Port-Royal)، كـما كانـت دراسـته متأثـرةً بالدراسـات النحويـة القديمـة.

وهكـذا توالـت الكتابـة في النحـو العـربي حتـى القـرن التاسـع عـشر، فقـد وجدنـا في هـذه المرحلـة إفالـد(Ewald)، ونولـد كـه، وركنـدروف، ووليـام رايـت وغيرهـم.

أمـا في القـرن العشريـن فالاهتـمام يزيـد زيـادةً كبـيرةً، والمناهـج تتعـدد، وتلاقينـا أسـماء أخـرى منهـا: بلاشـير، وفيـشر، وبرجسـتراسر وغيرهـم. ولقـد كان المسـتشرق الألمـاني فيـشر مـن أكـثر المسـتشرقين عنايـةً بتقسـيم العربيـة إلى

(1) ينظر: المصدر السابق، ص69، وتوماس إربينيوس (1623/1584): هولندي نشر في 1617 كتابا عن الأجرومية النحوية، وكتاب العوامل المائة للجرجاني، ويسير يوهان فك إلى أن الاهتمام الذي دفع إربينيوس نحو المصادر الإسلامية كان ذا طبيعةٍ لغويةٍ على الراجح..

(2) ينظر: عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي، ص18

مراحلَ زمنيـةٍ، ومـن أهـم أبحاثـه في هـذا المجـال (المراحـل الزمنيـة للعربيـة الفصحـى) الـذي نـشر في المجلـة الثقافيـة، الجامعـة الأردنيـة سـنة 1987م بترجمـة الدكتـور إسـماعيل أحمـد عمايـرة، وفي مؤلـف فيـشر (الأسـاس في فقـه اللغـة العربيـة) مباحـثُ وموضوعـاتٌ تتعلـق بتاريـخ اللغـة العربيـة متتبعًـا خطوطهـا ومخطوطاتهـا وتطـور لهجاتهـا[1]. وقـد عقـد مقارنـةً بـين اللغـة التقليديـة- كـما وصمهـا هـو- واللغـة المعـاصرة في الأسـاليب. ويلقانـا أيضـا كتـابٌ آخـرُ للمسـتشرق برجسـتراسر بعنـوان (التطـور النحـوي للغـة العربيـة) وأصـل هـذا الكتـاب محـاضراتٌ ألقاهـا هـذا المسـتشرق في الجامعـة المصريـة عـام 1929، وقـد طـرح المؤلـف في بدايـة كلامـه مع طلابـه فذكـر قائـلا: «**أيهـا السـادة... إن الغـرض مـن محـاضراتي التـي سـألقيها عليكـم، هـو درس اللسـان العـربي مـن الوجهـة التاريخيـة، أي مـن جهـة نشـأته، وتكوّنـه، وأصـول حروفـه، وأبنيتـه، وأشـكال الجملـة فيـه، والتغـيرات التـي وقعـت فيـه مـع تـوالي الأزمـان**»[2].

والغريـب عنـد هـؤلاء الباحثـين حـول تراثنـا اللغـوي بعامـةٍ، والنحـوي بخاصـةٍ مـا نـراه جليًّـا في مزاعـم بعـض الأوروبيـين مـن غمـطٍ لحقـوق غيرهـم في أسـبقيتهم للعلـوم، وقـد ادّعـوا في كثير مـن المواطـن أنهـم أهـل الأمـر أصالـةً، وأن العـرب قـد تطفّلـوا عـلى تراثهـم فنقلـوا واجـتروا، وقـد أضحـى مـن مناهـج هـؤلاء المسـتشرقين، بـل ومـن سـماتهم الراسـخة عندهـم أن أغلبهـم عـلى اختـلاف تناولهـم للمواضيـع وتفرعهـم في شـتى العلـوم ينتهـون إلى أمـورٍ منهـا:

1. أن العنـصر العـربي عنـصرٌ متخلـفٌ بفطرتـه، وطبيعتـه الجنسـية والمناخيـة الأمـر الـذي عطّـل فيـه دواعـي الإبـداع والابتـكار.
2. إن دور العلـماء المسـلمين في كل أطـوار التاريـخ لم يتعـد النقـل عـن الحضـارات واللغـات الأخـرى نقـلاً حرفيًّـا مجردًا، وأحيانـا نقـلاً محرفًـا دون ابتـكارٍ أو إضافـةٍ.

وهكـذاً لم يجـد كثيرٌ منهـم بُـدًّا مـن الزعـم بـأن الفقـه العظيـم مسـتمدٌّ مـن الفقـه الرومـاني، وكأن العـرب أيضًـا عنـد هـؤلاء تلامـذة الأغارقـة في الجغرافيـا،

(1) ينظر: فيشر فولف ديتريش: الأساس في فقه اللغة العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: د/سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002، ص51.

(2) المصدر نفسه، ص7.

كـما كانـوا في مجـال الهندسـة والبنـاء يعتمـدون عـلى حـذاق الحرفيـين مـن الإغريـق، والسريـان، والأرمـن في تشـييد المسـاجد[1].

أمـا فيـما يخـص النحـو العـربي ونشـأته، فقـد تباينـت آراؤهـم حـول قضيـة أصالتـه، وقـد تحامـل بعضهـم عـلى الفكـر اللغـوي العـربي تحامـلاً يفـضي إلى خلـع كلِّ فضيلـةٍ عنـا، وهـو مـا نفقهـه مـن كلام الباحـث اللغـوي الشـهير عبـد الرحمـن الحـاج صالـح إذ يقـول: «**والغريـب المقلـق أن هـذه البحـوث أُلبسـت لبـاس البحـث النزيـه التـي تنفـي كل طرافـة للمناهـج العربيـة في النحـو، وتنكـر أن يكـون النحـاة العـرب أخرجـوا شيـئًا جديـدًا... وذهبـوا يقارنـون بـين مصطلحاتهـم ومـا تواضـع عليـه اليونـان مـن قبلهـم في علـم النحـو، ورأوا في تقسـيم العـرب للـكلام تقسـيمًا أرسـطو طاليسـيًّا محضًـا**»[2]. كـما نجـد هـذا الزعـم في كثـيرٍ مـن إصـدارات دائـرة المعـارف الإسـلامية[3]، ونومـئ في هـذا الموضـع إلى أنـه مـن أظهـر الموضوعـات التـي تتعلـق بتاريـخ النحـو قضيـة نشـأة الدراسـات اللغويـة، فقـد اسـتوقفت كثـيراً مـن المسـتشرقين، وأوْلاهـا هـؤلاء عنايـةً بالغـةً، لكـن هـذا الصنـف نظـر إليهـا بـشيءٍ مـن الاسـتعلاء والفوقيـة.

ومـن أجـل ذلـك سـوف أبسـط الفرضيـات القائلـة بتأثـر النحـو العـربي بالمنطـق اليونـاني أو بـأيِّ جهـةٍ خارجيـةٍ، وذلـك بالـدرس والتحليـل، والمناقشـة والنقـد معتمـدًا عـلى منهـج البحـث العلمـي مـع نشـدان الحقيقـة -ليـس إلا- ولا يهمنـا مـن أيِّ وعـاءٍ صـدرت.

اختلاف فرضيات المستشرقين حول أصالة النحو العربي:

لقـد شرع موضـوع أصالـة النحـو العـربي يأخـذ صـورة سـجالٍ بـين المسـتشرقين في النصـف الثـاني مـن القـرن التاسـع عـشر الميـلادي، وكان أشـهر هـؤلاء في هـذا المضـمار أرنسـتريتان(A.Rénan)، وإجنـاس جولدزيهـر (I.Goldziher)، وكان الأبـرز في هـذه القضيـة مركـس(A.Merx) مقتفيًـا أثـر جويـدي(I.Guidi) الـذي نـشر بحثًـا سـنة 1877م باللغـة الإيطاليـة زاعـمًا فيـه أن

(1) ينظر: مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص67.

(2) الحاج صالح عبد الرحمن: بحوثٌ ودراساتٌ في اللسانيات العربية، موفم الجزائر، 2007م، ج1، ص42-43.

(3) ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية، ج1، ص435.

أصـل النحـو العـربي مأخـوذٌ مـن الفكـر اليونـاني[1].

وفي عـرض هـذه الآراء نألـف الأسـتاذ رينـان، وهـو أول مـن مثّـل الاتجـاه النقـدي التاريخـي بـين المسـتشرقين الفرنسـيين- في مؤلفـه (تاريـخٌ عـامٌّ ومنهـجُ مقـارنٌ للغـات السـامية)- يتطـرق إلى مسـألة أصالـة النحـو العـربي متسـائلا ف: هـل هنـاك تأثـيراتٌ أجنبيـةٌ في نشـأة النحـو العـربي، أو هـل أخـذه المسـلمون عـن السريـان، وهـل أبـدع النحـاة العـرب عملهـم اقتـداءً بالنحـو اليونـاني؟ وقـد اسـتبعد ذلـك معلـلاً بقولـه: «**إن الإجابة بالنفـي، فلـو أن النصـارى السريـان كانـوا المؤسسـين للنظـام النحـوي عنـد العـرب لظـل هـذا باقيًـا ومذكـورًا في تاريـخ العـرب... كـما أن إبـداع النحـو العـربي كان مـن خـلال كتـاب كل المسـلمين، وهـو القـرآن الكريـم، فالنحـو جـاء لحفـظ لغـة القـرآن الموضـوع الأسـاس الـذي طـرح مـن خـلال النحـاة الأوائـل**»[2]. كـما ارتـأى أن تقسـيم الـكلام عنـد النحـاة العـرب إلى اسـم وفعـل وحـرف أصيـلٌ، وذلـك أن تأثرهـم باليونانيـين تجـلى في العلـوم الأخـرى كالفلسـفة والطـب وغيرهـما، وقـد أكـد هـذا العـالم ذلـك مـن خـلال المصطلحـات المقترضـة مـن اليونانيـة، ويخلـص مـن ذلـك أن لـو كان العـرب اقترضـوا شـيئًا في النحـو العـربي لظهـر في مسـميات المصطلحـات، فالـذي في العلـوم الأخـرى غـيرُ موجـودٍ في النحـو والبلاغـة، فأسـماء هذيـن العِلمـين، ومصطلحاتهـما، وتقسـيماتهما، ومحتوياتهـما العامـة عربيـةٌ، أمـا العلـوم الأخـرى، فقـد أخذهـا العـرب عـن علـوم اليونـان القديمـة[3]. لكننـا نجـد المسـتشرق المجـري إجنـاس جولدزيهـر يخالـف رؤيـة رينـان، وينظـر إلى القضيـة مـن زاويـةٍ أخـرى ليذهـب إلى أن لا أحـد يمكـن أن يفـترض أنهـم أخـذوا النحـو مبـاشرةً[4]. ولعلـه يشـير هنـا إلى السريـان، ويصـل هـذا المسـتشرق إلى أن القضيـة ليسـت مـا إذا كان النظـام النحـوي اقـترض، ولكـن المسـألة هـي كيـف وصـل العـرب إلى المحتويـات اللغويـة الأساسـية في تحليـلات أقسـام الجمـل والـكلام، وكـذا تقعيـد القواعـد. كل ذلـك في غيـاب أيِّ تأثـيرٍ أجنبـيٍّ، ويسـتنتج

(1) ينظر: د/المهيري عبد القادر: نظرات في التراث اللغوي العربي، دار الغرب الإسلامي، ط/1، تونس، 1993م، ص85.
(2) Renan E., histoire générale et système comparé des langues sémitiques, première partie, 6ème édition, Paris, 1863, PP377-378
(3) Ibid, P378.
(4) Goldziche, on the history of grammar among the arabs, translated and edited by devenyi, K. et Ivanyi T , Benjamins, Amsterdam, Philadelphia, 1877, 1994, P5.

مـن كل ذلـك إلى أن العـرب لا توجـد أصالـةٌ في حياتهـم ولا في عقليتهـم[1]. كـما نـوّه هـذا الباحـث بكـون العـرب لم يطـوّروا معظـم محتويـات النحـو مـن خـلال نبوغهـم، وإنمـا كان ذلـك مـن خـلال السريـان لأنهـم عرفوهـم، كـما يذكـر بأنـه لـو كان علـم النحـو عربيًّـا مميـزًا كـما يزعـم رينـان لوجـدت بدايـات العلـم الأولى في المدينـة، كـما وجـدت فيهـا مدرسـة علـم الحديـث، وعـلى أيِّ شيءٍ يـدل أن هـذا العلـم تطـور عـلى شـاطئ الفـرات، وعـلى أيِّ شيءٍ يـدل أن معظـم علمائـه مـن جنسـياتٍ أجنبيـةٍ وبخاصـةٍ الفـرس[2].

ومـا هـو قمـينٌ بالذكـر أن أكـثر المسـتشرقين شـهرةً بالفرضيـة اليونانيـة في القـرن التاسـع عـشر هـو المسـتشرق مركـس حيـث قـرر أن العـرب تأثـروا في نحوهـم باليونانيـين مـن خـلال السريـان، وهـو مـا نقـرأه مـن قولـه: «**فقـد عـرف النحـاة السريـان أفـكار ثراكـس وغـيره مـن النحـاة اليونانيـين، وقـد وصلـت أفـكار السريـان إلى النحـاة العـرب، وللتأكيـد عـلى زعمـه قـرر وجـود علاقـةٍ مـا بـين المصطلحـات والمفاهيـم النحويـة العربيـة والفكـر اليونـاني**»[3]. وقـد أشـار أيضـا إلى سـبب عـدم ذ كـر المؤرخـين العـرب لأيِّ تأثـيرٍ أجنبـيٍّ، فلـم يتكلمـوا فيـه أبـدًا، وذلـك أنهـم جهلـوا العمـل الـذي وضـع النحـو مـع المنطـق، وتطلـب ذلـك زمنًـا مـن المؤرخـين العـرب لمعرفـة ذلـك[4]. وقـد أكـد أيضـا أن مفهومـي الإعـراب والـصرف يرجعـان إلى الـتراث اليونـاني، وكذلـك مفهـوم الخـبر، ومقولـة الجنـس، وفكـرة الظـرف أي ظرفـا الزمـان والمـكان يربطهـا بهـذا الـتراث أيضـا، وكـذا مقولـة الحـال، والتمييـز بـين الأزمنـة الثلاثـة عنـد النحـاة العـرب يربطهـا بالـتراث اليونـاني[5].

ولم ينتـه هـذا الأمـر إلى هـذا الحـد بـل أطلـت علينـا هـذه الفرضيـة اليونانيـة مـرةً أخـرى في السـبعينيات مـن القـرن العشريـن، وقـد تبنـى ذلـك كلٌّ مـن روندجريـن وفرسـتيج ومـن بعدهـما رافي طلمـون.

(1) Ibid, P5.

(2) Ibid, P9.

(3) د/عبد المنعم جدامي: المستشرقين والتراث النحوي العربي، ص27

(4) ينظر: Merx A., l'origine de la grammaire arabe, Ble 3(2), 1891, P16.

(5) Ibid, P19-27.

وقـد زعـم روندجريـن أن التأثـير اليونـاني في النحـو العـربي يـؤول حتـى إلى مرحلـة مـا قبـل ترجمـة العلـوم اليونانيـة للعـرب مشـيراً إلى أن المعرفـة بالمنطـق اليونـاني والفلسـفة اليونانيـة وصلـت إلى العـرب مـن خـلال الترجمات الفارسـية، التـي صنعـت في أكاديميـة جنديشـابور. وهـذه الترجـمات الفارسـية، وبعـض عنـاصر المنطـق اليونـاني أصبحـت متاحـةً للعـرب مـن خـلال كتـاب (المنطـق) ل ابـن المقفـع[1]. أمـا كيـس فرسـتيج فقـد تعـددت أبحاثـه منـذ مؤلفـه الأول سـنة 1977م، وفيـه ذهـب إلى أنـه لا يؤكـد عـلى أن الفكـر اللغـوي العـربي كان نسـخةً مـن النحـو اليونـاني، ولكـن يـرى فعـلاً أن الـدرس النحـوي اليونـاني كان النمـوذج ونقطـة الانطـلاق للنحـو العـربي[2]. وفي مقاربتـه المعنونـة ب: «**التربيـة الهيلينيـة وأصـل النحـو العـربي**»، يرتئـي أن النحـاة العـرب كانـوا عـلى الأقـل متآلفـين مـع عنـاصر مـن الفكـر النحـوي اليونـاني، كـما يزعـم فرسـتيج أن كتـاب ثراكـس (فـن النحـو) ترجمتـه للسريانيـة أصبحـت معروفـةً، لأن التأثـير اليونـاني في النحـو السريـاني واضـحٌ، ومنـه إلى النحـو العـربي، ولدعـم نظرتـه هـذه يـورد أن وجـود الفكـر اليونـاني جـاء مـن خـلال المراكـز العلميـة التـي كانـت بهـا الثقافـة والتعاليـم اليونانيـة في الحـيرة وحـرّان، ونصبـين، وغيرهـما مـن المراكـز التـي نـشرت الثقافـة الهيلينيـة، وهـذه الأماكـن ليسـت بعيـدةً عـن العـرب فقـد انتـشرت فيهـا الثقافـة الهيلينيـة ليؤكـد عـلى وصـول الفكـر اليونـاني إلى النحـاة الأوائـل، وليؤكـد فرسـتيج أيضًـا بـكل ذلـك عـلى التشـابه بـين أمثلـة سـيبويه في تقسـيم الـكلام والـتراث الهيلينـي[3]. ويركـز هـذا المسـتشرق عـلى فرضيتـه مـن خـلال بحثـه المعنـون ب« **أصـل مصطلـح القيـاس قـي النحـو العـربي**»، وفيـه يقـرر أن كثـيراً مـن عنـاصر الثقافـة الهيلينيـة أصبحـت موجـودةً في العـالم العـربي مـن خـلال دراسـة الفقـه، وقـد لوحـظ أن علـم الفقـه كان غـير خـالٍ مـن التأثـير الهيلينـي، ويضيـف حسـب زعمـه ليصـل إلى أن تعاليـم المدرسـة الهيلينيـة كانـت عامـلاً أساسـيًّا في أصـل الثقافـة الإسـلامية ككلٍّ[4].

(1) ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص27

(2) ينظر:

K. Versteegh: Greek element in arabic linguistic thinking, leiden 1993, P16

(3) K. Versteegh: 1980a, PP336-339...

(4) Ibid, 1980b, PP13-14

وكان المستشرق رافي بدوره متمسِّكًا بموضوع التأثير اليوناني على النحو العربي، فكان يحاول إيجاد الأدلة لذلك، ففي بحث له سنة 1990م يخلص إلى أن دراسته لكتاب (معاني القرآن) ل الفراء فتحت له أبوابًا جديدةً للبحث في التأثير الضخم للدراسات المنطقية في عالمٍ بارزٍ من علماء الفترة المبكرة للنحو العربي ألا وهو الفراء، وفي مقاربته هذه يقرر أن الفراء يختلف في نظريته عن سيبويه، ومرجعه أن الفراء لديه تأثيرٌ يونانيٌّ ضخمٌ، أما سيبويه فلم تفلح محاولات الباحثين في ربط فكره النحوي بالتأثير الهيليني[1]. ويعتقد رافي طلمون في ضوء بحثه أنه يجوز مثلاً أن هؤلاء النحاة القدماء كانوا على معرفةٍ ببعض المبادئ الفلسفية بل ببعض فصول مصنفاته الرئيسة إلا أنهم تغافلوا عنها رغبةً منهم في إنشاء علمٍ إسلاميٍّ أصيلٍ[2]. وهكذا يتضح لنا من خلال متجه هؤلاء المستشرقين ذيوع الفرضية اليونانية وأثر ذلك على النحو العربي حيث سادت ردحًا من الزمن.

نقد نظرة المستشرقين القائلين بأثر اليونان على النحو العربي:

إن المتأمل في الزعم المتمثل في أن أصالة النحو العربي، وبداية نشأته تأثرت بفكرٍ يونانيٍّ عن طريق ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية يألفها محفوفةً بالشك والارتياب، وإن محاولة هؤلاء أن يصلوا بين نشوء النحو في البصرة، والنحو السرياني أو الهندي لا يمكن إثباته إثباتًا علميًّا، وبخاصة إذا علمنا أن النحو العربي يقوم على نظرية العامل، وهي لا توجد في أيِّ نحوٍأجنبيٍّ على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية)[3]، كما ذهب الدكتور تمام حسان في مؤلفه (الأصول) إلى أن الثقافة العربية مرّت بطورين: الطور الأول ما قبل الترجمة حيث كان النحو أصيلاً لم يتأثر البتة بالفلسفة اليونانية أو المنطق اليوناني، أما الطور الثاني فهو عصر المأمون حيث تسربت الثقافة اليونانية إلى العرب، وذلك بدءًا

(1) ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص33.

(2) ينظر: رافي طلمون: التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، دراسةٌ في تاريخ المصطلح النحوي العربي، نشر بمجلة الكرمل، العدد 5، 1984، ص37-53

(3) ينظر: د/شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، ص20.

ب الفراء المتوفى سنة 207ه، وانتهاءً ب أبي علي الفارسي وابن جني في نهاية القرن الرابع[1]. وقد ندعم ما ارتآه هذا الباحث الأخير بكون انتشار عملية وضع القواعد النحوية في البدء كانت بأيدي أوائل القرّاء، وهم في الغالب من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي، ونصر بن عامر وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، وأما تلاميذ هؤلاء الذين قاموا بتطويرها فهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، وكان أكثرهم من البصريين الذين سبقوا إلى وضع النحو، ولعل عبقرية سيبويه ووضعه لمؤلفه (الكتاب) هو الذي أغرى هؤلاء المستشرقين ما حدَا بهم إلى الطعن في أصالة النحو العربي، وذلك ما نص عليه الدكتور عبد العال سالم مكرم فذكر: «**ومع أن المستشرقين قد جُبِلوا على التعمق في البحوث العربية، وأنهم يحاولون أن يستنبطوا من النصوص العربية حقائقَ جديدةً، وأفكارًا متطورةً، ومادةَ حيةً، فإنهم وقفوا في حيرةٍ وتعجبٍ إزاء هذه المرحلة، وقد كان منشأ هذه الحيرة وهذا التعجب هو كتاب سيبويه، إذ كيف يولد كتاب سيبويه عملاقًا من دون أن يُسبق بمراحلَ نموٍّ وتطورٍ تؤدي إلى ولادته ولادةً طبيعيةً**»[2].

وهذا الدكتور إبراهيم السامرائي يرد على المستشرق فيشر أنه فات هذا الأخير أن اليونانية تختلف نحوًا وطبيعةً عن العربية، ولم يكن واضعُ النحو صارفًا أو متأثرًا باليونانية بأيٍّ وجهٍ من الوجوه[3]، وقد اعتقد المحدثون أيضا أن هناك جوانبَ معيّنةً تصل النحو العربي بمنطق أرسطو، وهي فكرة القياس والتعليل، واستخدام المقولات وغير ذلك، وقد رد الدكتور عبده الراجحي هذا الرأي بتبيان العناصر المحددة التي تختص بالدرس النحوي

(1) ينظر: د/تمام حسان: الأصول دراسةٌ إيبستمولوجيةٌ لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، (1401هـ/1981م)، ص55-56.

(2) مراد باهي: فكرة تيسير النحو عند المستشرقين، ص71، عن د/عبد العال سالم مكرم، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ص6.

(3) ينظر: د/إبراهيم السامراني، دراساتٌ في اللغة، مطبعة العاني، بغداد، 1961، ص13.

اختصاصًا مباشرًا، وذلك أن التعريف عند أرسطو يختلف عن التعريف عند النحاة العرب[1].

وإذا كان هؤلاء الباحثون وغيرُهم من العرب قد نقضوا هذا الزعم فإننا نجد أيضا ثلةً من المستشرقين يعترضون أيضًا على من ادعى هذا التأثر الكلي بالحضارة اليونانية في المجال النحوي، ولذا فقد كانت الكتابات الاستشراقية بأقلامٍ مختلفةٍ ثقافيًّا، وبالتالي نلمح أن هناك تطورًا واضحًا قد حدث لكثير من المستشرقين المنصفين الذين تناولوا التراث النحوي العربي بالدرس والتمحيص والتدقيق، وقد ردوا فيها حتى على بعض العرب الذين قالوا بالتأثر ومن أبرز هؤلاء المستشرقين ليتمان الذي قال: «**ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبًا وسطًا، وهو أن العرب ابتدعوا علم النحو في الابتداء، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو، والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة يختلف، قال سيبويه: «فالكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنًى، وهذا تقسيمٌ أصليٌّ**»[2]، كما رفض المستشرق تربو هذا الزعم القائل بأن تقسيم الكلام عند النحاة العرب متأثرٌ بتراث أرسطو، فالعرب عندهم ثلاثةُ أقسامٍ، أما أرسطو فنجد في كتابه (الشعر) سبعة أقسامٍ[3]. وما يؤكد ذلك أنه لا يوجد تأثيرٌ من قبل ترجمة السرياني متى بن يونس لكتب أرسطو في مصطلحات النحاة العرب، فعنده «**الفعل**» يستخدم له مصطلح «**كلمة**»، ويستخدم مصطلح «**رابطة**» مقابل «**حرف**»، كما أن مفاهيم الفعل في التراث اليوناني غير متكافئةٍ مع مفاهيم النحاة العرب، وينتهي تربو إلى القول بأن النحو العربي منذ بدايته كان مرتبطًا بالحديث والفقه[4]. وهذه الرؤية تقترب من فهم السياق الثقافي الإسلامي آنئذٍ، وهذا المستشرق لوثر كوبف أكثر تبيانًا لهذه المسألة حيث يشير إلى أن الدين

(1) د/عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية بيروت، 1979، ص88.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969، ج3، ص293.

(3) ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص35.

(4) ينظر: تربو جيرار: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، بحثٌ منشورٌ بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد الأول، العدد الأول، 1978، ص137.

كان عاملاً مهمًّا في التأثير المباشر وغير المباشر في العرب، فالقرآن الكريم والحديث الشريف كما يذكر كوبف هما مصدرا النحو والمعجم [دون أن ننسى الأدب بشعره خاصةً ونثره]، وأن اللغويين العرب تباهوا بخدمتهم في نشاط العلوم الإسلامية، ومن هنا فالتأثير الديني في الفكر اللغوي كان مؤسسًا بعمقٍ في تفكير المسلمين، وقد ذكر هذا الباحث عددًا من مواضع التأثير في المنهج والرؤى[1]. وهذه المسألة أي أسباب نشأة النحو العربي قد فصل فيها علماء المسلمين في القديم والحديث، فهي لا تحتاج إلى أدنى تعليقٍ أو إيضاحٍ، إذ أرجعوا ذلك إلى سببٍ دينيٍّ وقوميٍّ وسياسيٍّ. ولعل دراسات فرستيج، الذي تبنى فكرة تأثير اليونان في العرب، للتفاسير القرآنية الأولى جعلته يقرر أن وجهات نظره تحولت بشكلٍ ملحوظٍ، فقد أقنعته دراسته للتفاسير القرآنية المبكرة أن كثيراً مما اعتقد أنه اقتراض من التراث اليوناني كان في حقيقته تطورا داخليًّا للفكر العربي[2]. كما ارتأى في بحثه المعنون ب«**النحو العربي وتفاسير القرآن في بداية الإسلام**» أن مسألة التأثير من خلال المصطلحات مسلَّمٌ بعدم فاعليتها من خلال المعطيات المأخوذة من كتب المفسرين الأوائل، وذهب هذا المستشرق أيضا إلى أن الربط بين مصطلحات النهايات الإعرابية، وأقرانها في الدرس اليوناني أصبح إسهابًا، لأن المصطلح العربي حسب نظرته فُسّر بسهولةٍ من خلال التطور الدلالي الداخلي في الثقافة العربية، ومن هنا حسب هذه النظرة تكون الفرضية اليونانية متخلىً عنها كليةً، أو قد تكون مساعدةً في تفسير بعض الغموض المحيط بأصل النحو العربي[3].

وهذا أرنست رينان الذي أشرنا إليه أعلاه يؤكد أصالة النحو العربي، فمن ناحية تقسيم الكلام عند النحاة العرب إلى اسم وفعل وحرف فهو أصيلٌ، وذلك أن العرب في العلوم الأخرى كالفلسفة والطب، وغيرهما كان علماؤهم متأثرين باليونانيين، وينوه هذا المستشرق على ذلك من خلال المصطلحات، والذي يوجد فيها عددٌ مقترضٌ من اليونانية، ويصل من

(1) ينظر: د/أحمد عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص37.
(2) K. Verstreegh: the notion of underlying levels' in the arabic grammatical tradition, HL 21 (3), PXII.
(3) K. Verstreegh:Arabic grammar and quranic exegesis in early islam leiden, 1993, P200.

خـلال ذلـك إلى أنـه لـو كان العـرب اقترضـوا شـيئا في النحـو العـربي لظهـر في مسـميات المصطلحـات، فالـذي في العلـوم الأخـرى غـير موجـودٍ في النحـو والبلاغـة، فأسـماءُ هذيـن العِلْمَـيْنْ ومصطلحاتُهـما وتقسـيماتُهما ومحتوياتُهـما العامــة عربيــةٌ، أمــا العلــوم الأخــرى فالعــرب عرفوهــا عــن علــوم اليونــان القديمــة[1].

وفي النصـف الثـاني مـن القـرن العشريـن خصـص المسـتشرق الشـهير كارتـر بحثًـا معمقًـا درس مـن خـلال جـذور النحـو العـربي مشـاطرًا رأي رينـان في نفـي فرضيـة التأثـر بالفكـر اليونـاني، ويعتقـد هـذا المسـتشرق أن المرحلـة الأولى مـن تاريـخ النحـو العـربي كانـت بدائيـةً وعقيمـةً، وأن سـيبويه في كتابـه (الكتـاب) لم يعتمـد عـلى تعاليـم سـابقيه عليـه في دراسـة النحـو العـربي، وأن كتابـه هـو العمـل النحـوي الأول مـن نوعـه، كـما أن سـيبويه في زعمـه دمـج مراحـل النحـو العـربي[2]. كـما يشـير الأسـتاذ إلى أنـه لا يوجـد في كتـاب سـيبويه مصطلـحٌ دالٌّ عـلى مفهـوم «**نحـو**» بالمفهـوم التقنـي، غـير أنّهنـاك مصطلحـاتٍ دالـةً عـلى الطريقـة التـي يتكلـم بهـا النـاس، وهـي اسـتخداماتٌ لـدى الدارسـين للفكـر الإسـلامي ومنهـا كلمـة «**طريقـة**» التـي تـدل عـلى الطريقـة الصوفيـة و«**سـنة**»، وهــي مصطلــحُ تقنــيٌّ للدلالــة عــلى الســنة الإســلامية، وكذلــك مصطلــح «**مذهـب**» الـدال عـلى طريقـة التفكـير، وكـذا «**وجـه**» بمعنـى الطريقـة المميـزة، وكذلـك «**مجـرى**» ومشـتقاتها العديـدة، ولكـن أكـثر المصطلحـات اسـتعمالاً في الكتـاب- حسـب نظـرة كارتـر- للدلالـة عـلى طريقـة الـكلام هـو «**نحـو**»، وأنـه حرفيًـا بمعنـى طريقـةً، اتجـاه، نمـط[3]. كـما لم يـرق مصطلـح نحويـين - حسـب رأيـه- عنـد سـيبويه- ولا عنـد سـابقيه مـن النحـاة إلى المعنـى التقنـي، وأن هـذا المعنـى اكتسـب فيـما بعـد صاحـب الكتـاب، وذلـك بعـد الاحتـكاك مـع مصـادر الفكـر اليونـاني، وهكـذا يتضـح لنـا جليًـا أن هـذا المسـتشرق قـد اتخـذ مـن دلالات مصطلحَـيْ «**نحـو**» و«**نحويـين**» عنـد سـيبويه وسـابقيه بيانًـا عـلى فرضيتـه القائلـة بعـدم تأثـر النحـو العـربي بالفكـر اليونـاني في مرحلـة البـدء.

(1) Renan E., histoire générale et système comparé des langues sémitiques, première partie, 6ème édition, Paris, 1961, P379.

(2) M.G. Carter: les origines de la grammaire arabe, Rei 40, 1972, P95.

(3) ينظر: د/عبد المنعم جدامي: المستشرقون والتراث النحوي العربي، ص41

ومن أجل دحض التأثير اليوناني يؤكد الأستاذ كارتر على العلاقة بين النحو والفقه، حيث نجد أن سيبويه قد استعمل مصطلحاتٍ أخلاقيةً مثل: حسن وقبيح ومستقيم ومحال، وكان صاحب (الكتاب)- حسب المستشرق- قد استخدم هذه المصطلحات بعد أن منحها المعنى النحوي التقني، وأن مصطلح «**جائز**» أُعطيَ مظهرًا فقهيًّا في (الكتاب) وعند كل النحاة العرب اللاحقين[1]. كما يومئ إلى أن مصطلحاتٍ نحويةً مهمةً مثل: بدل وعوض، وشرط ولغو، وخيار وحد، وحجة وأصل، ودليل ونية، ومصطلحاتٍ أخرى بدون ريبٍ لا يمكن أن تكون مفهومةً إلا في ضوء استعمالها في السياقات الفقهية[2]. وقد بحث هذا العالم العلاقة بين الفقه والنحو في أكثر من بحث، ويخلص إلى أنّ هناك علاقةً قويةً خاصةً بين النحو العربي والفقه في كل من الهدف والمنهج، فكلٌّ منهما وسيلةٌ للتحكم الاجتماعي، كما أن هناك علاقاتٍ متبادلةً بين الأسس اللغوية للفقه، والطبيعة الفقهية للأفكار النحوية[3]. وإن كان النحو متأثرًا بالفقه، فالفقه بدوره متأثرٌ بالنحو، وقد ذهب في هذا السياق الدكتور أحمد الجندي قائلا: «**معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبنيٌّ على علم الإعراب، وأنه إذا عجز الفقيه عن تعليل الحكم قال هذا تعبديٌّ، وإذا عجز النحوي عنه قال هذا مسموعٌ، وأن أصول النحو هي أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وأصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله**»[4]، وراح أحد الباحثين إلى أن «**مسيرة النحو خلال تطور الفقه الإسلامي من بداياته الأولى على يد الصحابة والتابعين إلى أن صار صناعةً لها منهجها ومنطقها الواضح الذي هو أصول الفقه، وجدنا النحو عنصرًا أصيلاً من عناصر هذا المنهج وإن اختلف قوةً وضعفًا**»[5].

---

(1) M.G. Carter, 1972, PP83-84.

(2) Ibid, P80.

(3) ينظر: M.G. Carter: writing the history of arabic grammar, In H.L 21(3), 1994, P409.

(4) د/أحمد علم الدين الجندي: في الأصول والفروع بين الدراسات الفقهية والنحوية في القرآن والعربية: الصراع بين القراء والنحاة، بحثٌ منشورٌ في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء 59، ص91.

(5) د/مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليين، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ص38.

وإذا كان الأمـر كذلـك فهـذا يدفعنـا إلى بحـث أصـول النحـو العـربي في مصطلحـات ومناهـج الفقهـاء المسـلمين، وهـو مـا خلـص إليـه المسـتشرق كارتـر، فقـد ألفـى مصطلحـات أخلاقيـةً وفقهيـةً كثيرةً في كتـاب إمـام النحـاة سـيبويه، ويُعـدُّ ذلـك دليـلاً جليًّـا عـلى تأثـير الفقـه في النحـو وهـو الأجـدر بالرجحـان عنـد توافـر الأدلـة.

ولعلنـا نخلـص بعـد هـذه المقاربـة النقديـة لموقـف بعـض المسـتشرقين إزاء النحـو العـربي إلى جملـةٍ مـن النقـاط التـي نراهـا صائبـةً وصحيحـةً ألا وهـي:

1. إن نظـرة هـؤلاء إلى تأثـر النحـو العـربي بالـتراث اللغـوي اليونـاني يقـوم عـلى التعصـب الأوروبي الـذي يبـين مـن خـلال ذلـك أن الهـدف هـو كـون اليونـان مصـدرًا لـكل الإبداعـات العلميـة في القـرون الوسـطى معتمديـن في ذلـك عـلى الترجـمات التـي ترجمـت مـن بدايـة القـرن الثالـث الهجري/التاسـع الميـلادي، وهـم بذلـك يهمشـون مسـاهمة الحضـارة العربيـة الإسـلامية في بنـاء صرح الحضـارة الإنسـانية، وهـو موقـفٌ لا يمـت بـأدنى قـربى إلى الموضوعيـة أو الأمانـة العلميـة.
2. إن عـدم وجـود التأثـير الأجنبـي في النحـو العـربي يـدل عليـه عـدم وجـود أيِّ ذكـرٍ أو قـل الغيـاب الكامـل لأيٍّ ذكـرٍ للتأثـير الأجنبـي عنـد مؤرخـي النحـو العـربي وهـو مـا ارتـآه المستشرق كارتـر، حيـث يذكـر أيضـا أن ابـن النديـم صاحـب كتـاب (الفهرسـت) لم يـشر إلى أيّ علاقـةٍ بـين النحـو اليونـاني والنحـو العـربي[1]. كـما أن المصـادر العربيـة لم تذكـر أيَّ تأثـيرٍ أجنبـيٍّ في النحـو العـربي، وهـل رفـض العـرب فعـلا هـذا الذكـر رغبـةً منهـم في إنشـاء علـمٍ إسـلاميٍّ أو عـربيٍّ؟ وإذا كان هـذا الاحتـمال صحيحًـا، فلِـمَ ذكـر العـرب في بعـض العلـوم الأخـرى التأثـير اليونـاني، وهـو واضـحٌ في مصطلحاتهـا، وإن تشـكيك هـؤلاء المسـتشرقين في المصـادر العربيـة لكونهـا أهملـت ذكـر التأثـير الأجنبـي لهـو موقـفٌ ينـأى عـن موقـف العـالم المتمسـك بمنهجيـة البحـث العلمـي الأكاديمـي.

(1) ينظر: M.G. Carter: les origines de la grammaire arabe, Rei 40, 1972, P72.

3. عدم اعتماد النحو العربي على الفكر اليوناني في تقسيم الكلام، ذلك أن هذا الفكر أي اليوناني عرف ثمانية أقسام من الكلام، أما النحو العربي فيعتمد على ثلاثةٍ: اسم وفعل وحرف، فهناك إذًا تمايزٌ جوهريٌّ ونوعيٌّ بين النحوين العربي واليوناني، كما أن التقسيم الأرسطي جاء على مستوى الجملة محاذيًا ل أفلاطون مع تفصيلاتٍ، أما التقسيم العربي فهو على مستوى الكلمة مع التنويع في أقسامها عند إمام النحاة سيبويه.

4. الملحوظ أن كلام سيبويه كلامٌ وصفيٌّ أكثر منه تعريف، فهو إذًا لم يطبق التعريف الأرسطي، كما أن الكتاب غالبًا ما يخلو من التعريف، فهو لم يعرف الحال أو البدل، أو الفاعل، كما أن طريقته تبدأ بذكر اسم الباب، ثم يشرع مباشرةً في عرض القاعدة المستخلصة من الاستعمال، فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري وجدنا اختلافًا كبيرًا، إذ نلمس تأثر النحاة بمنطق أرسطو وبمنهجه في التعريف[1]. وهو ما نراه جليًّا من تعريف الزجاجي للنحو الذي يعد نموذجًا للتأثير اليوناني، يقول: «**علمٌ قياسيٌّ ومسبارٌ لأكثر العلوم لا يقبل إلا ببراهينَ وحججٍ**»[2]. ولذا نؤكد أن التأثير اليوناني لم يكن إلا في القرن الثالث الهجري، وقد بدأ هذا التأثير بفعل ميزتين هما: أ- ذكر النحاة العرب أن التقسيم الثلاثي في كل اللغات، فقد ذكر الزجاجي في هذا السياق: «**وأما الاحتجاج للأولين الذين زعموا أن الكلام كله اسم وفعل وحرف، فجعلوا العربي وغيره في ذلك سواءً، فهو بعينه الاحتجاج الذي تقدم ذكره لمذهب سيبويه... وقد اعتبرنا ذلك في عدةٍ لغات عرفناها سوى العربية، فوجدناه كذلك، لا ينفك كلامهم كله من اسم وفعل وحرف، ولا يكاد يوجد فيه معنًى رابعٌ ولا أكثر منه**»[3].

ب- وجود تعريفات لكل أقسام الكلام، وهذا يتضح جيدًا من كتب النحو العربي في القرن الثالث الهجري وما بعده.

(1) ينظر: د/عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص72-73

(2) الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن: الإيضاح في علل النحو، تحقيق: د/مازن المبارك، دمشق، 1974، ص41..

(3) المصدر نفسه، ص44-45

وفي الختـام نسـتطيع أن نقـول، بعـد المعالجـة والـدرس والتحليـل والتمحيـص، أن الملابسـات كانـت غـيرَ مهيـأةٍ في البحـث في قضيـة أصالـة النحـو العـربي في القـرن التاسـع عـشر في أوروبـا بفكـرٍ محايـدٍ، وبعقـلٍ نزيـهٍ، وذلـك أن الفرضيـة اليونانيـة بُنيـت بجهـلٍ إذا طبقـت عـلى أوائـل النحـاة حتـى إمامهـم في كتابـه (الكتـاب). ولعلنـا نتسـاءل: هـل بالفعـل أصـل كل تحليـلٍ لغـويٍّ الفلسـفة والمنطـق؟، فقـد كان اهتـمام العـرب بالمجـال اللغـوي في بدايتـه مـن أجـل خدمـة النـص القـرآني، وخدمـة هـذه اللغـة التـي تنـزّل بهـا، أو بعبـارةٍ أخـرى فقـد وُجـد ذلـك في سـياقٍ ثقـافيٍّ مغايـرٍ تمامًـا للتحليـل النحـوي عنـد اليونـان وعنـد الهنـود، وكذلـك وُجـد عنـد الصينيـين لمقاصـدَ أخـرى ناجمـةٍ عـن ظروفهـم الثقافيـة، وهـذه النظـرة الموضوعيـة لا تنفـي أبـدًا قضيـة التأثـير فيـما بعـد، وذلـك لأن الحضـارات دولٌ ومتداولـةٌ، وكل الأفـكار العلميـة تبدأ بسـيطةً في حضـارةٍ مـا، ثـم تنطلـق في حضـارةٍ أخـرى بشـكلٍ آخـرَ. ولـذا نسـتطيع أن نقـول: ليـس مـن الموضوعيـة العلميـة أن يذهـب أحـد المسـتشرقين مثـل رافي طلمـون إلى القـول: «**إني مقتنـعٌ مـما مثّلنـاه هنـا بـأن النحـو العـربي في عهـد نشـأته لم يجهـل تـراث الفلسـفة اليونانيـة بـل إنـه استرشـد بـه إلى حـدٍّ مـا وخاصـةً في مجال الاصطـلاح... ويبـدو الآن أن قلـة التأثـر بهـذا الـتراث إنمـا هـي نتيجـة مجهـود النحويـين القدمـاء الواعـي الصـارم في خلـقٍ علمـيٍّ يتصـف ويتسـم بعلامـات النحـو الوطنـي العـربي**»(1). وهـل بالفعـل كانـت هـذه الأيديولوجيـا موجـودةً عنـد سـيبويه والخليـل، والحضرمـي والفـراء، وغيرهـم مـن الأجيـال المتتابعـة التـي شـاركت في بنـاء هـذا الـصرح الكبـير الـذي صنعـه العـرب مـن نشـأته إلى كتـابي سـيبويه والفـراء في سـنينَ كثـيرةٍ؟ هـل هـؤلاء كلهـم بهـذه الأيديولوجيـا؟ وهـل كانـوا كلهـم عربًـا، فالنحـاة كانـوا ينتمـون إلى أوطـانٍ شـتى، وأعـراقٍ متباينـةٍ وهـذا مـا نسـيه طلمـون؟(2). كـما أقنعـت المسـتشرق فرسـتيج دراسـته للتفاسـير القرآنيـة المبكـرة أن كثـيراً مـما اعتقـده اقتراضًـا مـن الـتراث اليونـاني كان في

(1) رافي طلمون: التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه، دراسةٌ في تاريخ المصطلح النحوي العربي، نشر بمجلة الكرمل، العدد 5، ص53..

(2) ينظر: د/إسماعيل عمايرة: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية عند العرب، دار الملاحي، بغداد، ط/1، ص89

الواقع تطوراً داخل الحضارة العربية. وأشير في هذا الصدد إلى أن هناك كتاباتٍ كثيرةً تقرر تأثير مدرسةٍ لغويةٍ في أخرى، وعالِمٍ في عالِمٍ، وعالِمٍ في مدرسةٍ، وذلك نحو تأثير مدرسة براغ في اللغويين الأمريكيين، وتأثير دوركايم في دوسوسير، وتأثير ياكوبسون في اللغويين الأمريكيين، وكذا تأثير البورويال في اللغوي تشومسكي، وتتنوع الكتابات في هذا المضمار ما يسمح لنا أننتناول البحث في موضوع التأثير في تراثنا بشيءٍ مختلفٍ عن تلك النظرة المتعصبة لدى ذلك الصنف من المستشرقين. ويعود موقفهم هذا من كل تلك الاحتمالات أنها تحاول أن تفسر مجمل التراث النحوي بعاملٍ واحدٍ فقط، وينتهون إلى أنه بصرف النظر عن النموذج الذي احتذاه -إذا كان هذا النموذج حقًّا موجودًا - فإن النحو العربي قد تطور إلى تعاليمَ مختلفةٍ وأصيلةٍ تمامًا. ونقول أنّ الحقيقة العلمية تفرض علينا الحذر في الخوض في الكلام عن التأثير والتأثر في العلوم من حضارةٍ إلى أخرى دون بينةٍ، وذلك لأن هناك تشابهاتٍ كثيرةً بين كثيرٍ من النقاط العلمية المشتركة بين علمٍ في حضارةٍ ما، وآخرٍ في حضارةٍ أخرى، ولا يكون التشابه دليلاً أو مؤكِّدًا لتأثير أحدهما في الآخر، فقد يوجد والحال هذه - ما يدعى توارد الأفكار أو الخواطر ليس إلا.